23
الطريق مطروق

حين ترى الصين من الجو، تدرك ضخامة ما تحاول الحكومة في بكين أن تفعله. إنها لا تبني بلداً، إنها تبني قارة. إن بليوناً ونصف البليون من الناس يسكنون في أوروبة وفي شمال أمريكا وجنوبها، وينقسمون إلى أكثر من خمسين دولة ذات سيادة، ويعيش شعب صيني من بليون ونصف البليون من الناس تقريباً في دولة واحدة ذات سيادة. فالتحدث عن بناء الصين الأمة بالنَّفَس نفسه مثل بناء ماليزيا الأمة أو المكسيك الأمة كذلك، هو، مع الاحترام المستحق للماليزيين وللمكسيكيين، حديث غير معقول.

وأراه كله موضوعاً تحتي في الطيران القصير من ينينغ إلى أورومجي، وبعدئذٍ والشمس تغرب، على رحلة طيران لأربع ساعات من أورومجي إلى شنغهاي. وعلى الرغم من أنني صرت مرتبطاً بالطريق 312 لأنني سافرت غرباً على طوله، فأنا سعيد في أنني لا أرجع إلى شنغهاي براً على نفس الطريق.

وأخيراً، أصل متأخراً في تلك الليلة إلى مطار شنغهاي الأصغر والهنونغ كونغي الأقدم، وهكذا لا يكون علي أن أركب القطار المغناطيسي المرفوع مرة ثانية عائداً إلى المدينة. ولكنني، مع ذلك آخذ سيارة أجرة عالية السرعة للركوب على طول الطريق السريع المرفوع المسمى بليد رنر من طريق يانان وهو يقطع المسافة عبر المدينة على ارتفاع خمسين قدماً فوق الأرض.

وأقيم في هذه المرة، في فندق السلام، على شارع البند. الباعة المتجولون مازالوا هناك، بعد منتصف الليل، يعرضون الساعاتِ، والنساءَ، ومضارب لعبة الغولف. وفرقة الجاز أنهت عزفها في الوقت الذي أسجل فيه وصولي في الفندق، وأنا لا أمتلك القدرة على مجرد المشي متأخراً في الليل على طول شارع البند.

في اليوم التالي أنام متأخراً، سعيداً بأني لن أركب سيارة إلى مكان ما. وأمضي يوماً كسولاً في شنغهاي، يتضمن ركضاً في النهار لآخر مرة على طول شارع البند والعديد من أكواب القهوة الطويلة الخالية من الدسم. وفي المساء أذهب إلى مطعم نيو هايتس مرة أخرى وأنظر عبر نهر هوانغبيو، وأفكر كم هو بعيد هذا كله عن صحراء غوبي.

القوارب التي تنقل الفحم على طول نهر هوانغبيو مازالت تنتقل صعوداً ونزولاً، ولافتات النيون التي تضيء ضفتي النهر تبدو وكأنها قد تضاعفت في أثناء غيابي بعيداً لمجرد شهرين. أغمض عيناً وسوف يفوتك الكثير من الصين الجديدة. ولافتة لشركة آمواي تتوهج برسالتها، وأنا أفكر بالباعة الذين قابلتهم قبل أسابيع في جانغيبو (معكرونة طويلة بلحم الحمار ليست بعد على قائمة الطعام في مطعم نيو هايتس.) هناك حركة في كل مكان، ومتابعة للصحة ومتابعة للسعادة، وشنغهاي تندفع بسرعة عبر نفق الزمان إلى المستقبل. وأكتب في دفتر ملاحظاتي، «شنغهاي هي أمريكا»، وأقف هناك أتنفس فقط في جو هواءٍ حلو مر.

من المستحيل أن تكون محايداً بشأن الصين. بعض الأجانب يكرهونها من اللحظة التي تطأ فيه أقدامهم هنا. وآخرون يحبونها حباً جماً فيغرسون فيها جذوراً ولا يذهبون إلى الوطن أبداً. وأنا أعجب إن كانت البلاد الأخرى تقسم الناس انقساماً على هذا النحو من الشدة في عواطفهم. وبالنسبة إلي، لقد حاولت دائماً أن أحتفظ بوحدة الأضداد الخاصة بي، محاولاً أن أحتفظ بالحب والكراهية في توازن. ولكن ذلك من الصعب، وخصوصاً بصفتي صحافيا. يفترض بي ألا أهتم. ويفترض بي أن أراقب فقط. ولكن كيف أستطيع ألا أهتم حين يجري هز خمس الإنسانية أمامي ناظري، وآلاف يكسبون الملايين، وملايين يجري سحقهم ؟ وإذا كنت أبدو مشوشاً قليلاً بشأن الصين، فذلك بسبب أنني فعلاً مشوش. وإذا كنت أنت غير مشوش، فأنت إذاً ببساطة لم تكن تلقي انتباهاً.

ولكن إلى أين تقود كلها؟ فالمدينة المتغرِّبة، شنغهاي، التي كانت فيما مضى مكروهة، هي الآن النموذج الوطني المحبوب جداً الذي تحاول كل مدينة واقعة على

الطريق 312 أن تضاهيه. الطفل غير الشرعي صار هو البطريرك، رب العائلة. ومن وجوه عديدة، الصين متحولة. إنها بالتدرج تستعيد موقعها في العالم. لقد استيقظت من البيت الحديدي للكونفوشيوسية وحطمت نفسها كي تستنقذ نفسها.

ولكن ماذا الآن؟ ماذا ستصير الصين؟

حين وصلت إلى الصين مراسلاً، بدأت أعمل خطوط زمان في رأسي حول أسئلة مثل متى ستصير الصين اقتصاد سوق كامل؟ وكم تستغرق قبل أن تصير ديمقراطية؟ وبعدئذٍ، ومثل كل مراسل هنا تجد عاجلاً أو آجلاً، أنك كلما طال بك المقام، كنتَ أقل ميلاً إلى عمل تنبؤات. وعلى الرغم من أنني انطلقت أبحث عن أجوبة، كنت مع حلول الوقت الذي أنهيت فيه رحلتي، أقترح على ناشرتي أنه قد يكون جيداً أن نترك القراء يستخرجون استنتاجاتهم الخاصة، فأشارت إلى أنه إذا كنت أنت، أيها القارئ العزيز، قد تجولت معي في رحلتي الشاقة عبر الصين تماماً، فإن أقل ما أنا مدين لك به هو بعض الاقتراحات التي تتصل بالكيفية التي قد تتطور بها الأشياء هناك في المستقبل. وعليه ها أنا ذا افعل.

في السنة السابقة، حين أخبرت المحرر الأجنبي في الراديو الوطني العام بأنني قد أرغب في ترك الصين في وقت ما في المستقبل القريب، سألني إن كنت مهتماً في أن أكون مراسلاً في القدس؟ وقلت له: إن علي أن أفكر في ذلك. سأكون مهتماً بتعلم اللغة العربية وتغطية العالم الإسلامي عند نقطة معينة. إنها، طبعاً، قصة ضخمة. ولكن ذلك في النهاية ليس هو على ما يبدو ما سيكون العمل في إسرائيل حوله. في القدس أنت تغطي إسرائيل والفلسطينيين، وتلك قصة تدور فقط في دوائر. وقلت لمحرري حين هاتفته بقراري، إن الصين قصة خطية، في طريقها إلى مكان ما، لا أحد يعرف إلى أين. لا يهم العنف الدموي في الشرق الأوسط نفسه، أو اصطحاب عائلتي الشابة لتعيش معي في وسطه، أو حقيقة أني كنت في الحقيقة منهكاً بعد ستة أعوام على الطريق في الصين وآسيا. وأخبرت محرري أنني لم أكن متأكداً إن كنتُ، فكرياً، أريد أن أتابع فقط مجرد دائرة لا نهاية لها بلا جدوى من الأحداث، قصة لا تذهب في الحقيقة إلى أي مكان.

بعد تلك المحادثة، وفي أثناء سفري عبر الصين على الطريق 312، بدأت في التفكير حول ما سبق لي أن قلته، وأدركت أنني كنت مخطئاً، وأن الصين هي أيضا قصة دائرية. وأنما الأمر فقط هو أن الدوائر الصينية أكبر بكثير جداً. إنها تقاس بالقرون، والعقود على الأقل، لا بالأعوام أو بالأشهر. ويبدو أن تلك الدائرة قادمة وتحدث مرة أخرى.

هذا بالنسبة إلي هو في الحقيقة السؤال الكبير الذي يواجه الصين الآن، في بداية القرن الحادي والعشرين، وربما سيكون هو السؤال الذي سيقرر إن كانت البلاد ستستمر سائرة نحو العظمة. هل ستتبع نفس الدائرة لا غير مثلما كانت تتبعها كل أسرة في تاريخ الصين؟ أم هل ستكسر تلك الدائرة؟ وهل تستطيع أن تكسر تلك الدائر وتسلك مساراً مختلفاً؟

ويبدو أن التاريخ الصيني لم يمتلك أي رواية يسردها لهذا السؤال ـ مجرد تتابع الأسر، وكلها معزولة إحداها عن الأخرى. وكانت كل أسرة قد جاءت إلى السلطة بجدول أعمال جديد، معارضة به للفساد في الأسرة السابقة. وكانت قد قوبلت بالترحيب، وتولت القيام بالإصلاحات. لقد توسعت، وحكمت، وفرحت في العصر الذهبي لثقافتها، وبعدئذٍ انحدرت إلى نفس الفساد ونفس العجز مثل الأسرة السابقة لها. أحياناً استغرقت الأسرة مائة عام، وأحياناً مائتين أو ثلاث مئة عام. كان تاريخ الصين في كل زمان يدور حول توحيد البلاد ثم الانهيار فقط، ثم إعادة التوحيد ثم التعرض للغزو، والإطاحة، والانهيار، ثم إعادة التوحيد والانهيار ثانية. لماذا يجب أن يكون المستقبل مختلفاً؟

في بعض النواحي، الصين هي نفسها مثلما كانت دائماً. وهي مازالت نفس النوع من الحكومة الإمبراطورية، الأحادية الحزب التي كان سيعرفها الإمبراطور الأول منذ ألفي عام مضت. وهذا يعني أنه لا توجد أي زواجر وضوابط فعالة، وأن هناك فساداً مرعباً مثلما كان موجوداً دائماً. كان كونفوشيوس مخطئاً في نقطة واحدة محددة. بنو البشر غير قادرين على مراقبة أنفسهم وضبطها.

وحقيقة وجود عشرات آلاف القضايا من الاضطراب الريفي في كل عام، هي حقيقة تدق بلا أدنى شك بعض أجراس الإنذار في مجمَّع القيادة في بكين، تماماً مثلما تدق بعضَ أجراس الإنذار في رؤوس مؤرخي الصين. فإن لم تكن الغزوات الأجنبية، فقد كانت الثورات الفلاحية هي التي آذنت بموت كل أسرة وأعلنت عنه. والآن، فإن الحزب الشيوعي، بإهماله للفلاحين، قد صار في كل جزء منه مرتشياً وفاسداً مثل الحزب الوطني الذي ثار الشيوعيون ضده في الثلاثينيات من 1930 وفي الأربعينيات من 1940. التاريخ حتى الآن، دائري للغاية.

ولكن هناك عدة طرق مهمة جداً تختلف فيها الصين اليوم عن الماضي التي توحي أنها ربما، مجرد ربما، تكون قادرة على أن تتجنب المسير في طريق الأسر السابقة، وربما لأول مرة، تشكل رواية سردية مستمرة، تقدمية خطية للتاريخ الصيني.

أولاً وقبل كل شيء، الدولة أقوى بكثير. والطريق 312 جزء من تلك القوة. في الخمسينيات من 1950، انطلق الحزب الشيوعي في تعزيز الطرق والسكك الحديدية التي كانت قد بنيت في عهد أسرة شينغ الأخيرة وفي العصر الجمهوري. وفي التسعينيات من 1990 ومنذ العام 2000، توسع الإعمار بمعدل لا يكاد يصدق. وأسرة شينغ، منذ مائة عام، من دون الاهتمام بأي أسر جاءت قبل ذلك، لم تستطع أن تضبط كل مناطقها البعيدة. والحزب الشيوعي يستطيع، وهذا يعني أن ثورات الفلاحين أقل احتمالاً في النجاح.

والاختلاف الثاني هو أن قادة اليوم صينيون، ليسوا من المانشو أو من المنغول أو من أي مجموعة عرقية أخرى. ولذلك فهم يستطيعون أن يجسدوا الطموحات الوطنية للبلاد (وللشعب) بطريقة لم يستطعها، على سبيل المثال، حكام أسرة شينغ المانشو الذين أطيحوا في العام 1912. ومع كل المشكلات العديدة في الصين الحديثة، هناك قدر معين من الكبرياء في المكانة المرتفعة للبلاد في العالم، وخصوصاً بين السكان الحضر.

والسبب الثالث في أن الموقف مختلف هو سبب اقتصادي، وربما يكون هذا هو أهم الأسباب. مازال هناك فساد ضخم، وفجوة الثروة تتنامى، وكثير من الناس يجري

سحقهم، وهم عاجزون لا يقوون على التغير الاقتصادي المثير للاضطراب والتقلب. ولكن ليس هناك أدنى شك في أن الاقتصاد الصيني يزدهر في العديد من النواحي، وهناك خيارات عديدة أكثر مما سبق متوافرة للناس الذين لديهم بعض الطموح في النجاح.

الطريق 312 جزء من هذا أيضاً، وظاهرة التسويق المتمهل، التي تؤثر على العديد من السلع الاستهلاكية، ظاهرة ضخمة، تبدأ فيها أسعار المنتجات عالية لا تقوى عليها سوى القلة الغنية ثم تنزل الأسعار حتى يقوى الجمهور العام على الشراء. والفلاحون طوروا عادة أن يذهبوا إلى الطريق بأعداد كبيرة اعتقاداً منهم أنه يوجد في مكان ما فوق قوس القزح الصيني، عمل في مصنع يستطيع أن يرفعهم ويخرجهم من الفقر. وكثيرون منهم وجدوا أن هذه الأعمال موجودة: وهي أعمال صعبة، وخطرة، في مصانع قذرة كالتي وصفها تشارلز دكنز، ولكنها، على الرغم من كل ذلك أعمال تمكن الفلاحين من أن يكسبوا في شهر أكثر مما كانوا يكسبونه في عام كامل من الزراعة. الطريق 312 وكل الطرق الأخرى في الصين صارت هي صمام تصريف البخار المركب على قدور الضغط الكاتمة التي لم تكن في السابق تستطيع أن تتصرف إلا من خلال الثورة.

ومع هذا التحول الاقتصادي جاءت طبقة جديدة كاملة هي الطبقة الوسطى، وهي جمهور عام حضري أكثر معرفة، وأكثر نضجاً، وأكثر وعياً، وأكثر إدراكاً لحقوقه، ولم يسبق قط أن وجد هذا الجمهور من قبل على مثل هذا المعدل في التاريخ الصيني. إنهم يمتلكون الخيارات والفضاء الاجتماعي الذي يعيشون فيه، ولا تتدخل الحكومة فيه. إنه ليس فضاء بالقدر الذي يوجد في العالم الغربي، طبعاً، ولكن الناس يمتلكون خيارات مهمة ويمتلكون مع ذلك حرية زادت زيادة مهمة أيضاً. إنهم لا يستمعون لصوت الحكومة فقط، بل يستمع أحدهم للآخر ويستمعون لأنفسهم أيضاً. ولكنهم حتى الآن، كانوا منصاعين، حيدتهم الدولة وكسبتهم من خلال وعود بثروة أكبر. أما إن كان هذا الحلف سيستمر أم لا وإن كانت الحكومة ستستطيع أن تحافظ على سعادة الطبقة الوسطى الجديدة أم لا، فهذه ستكون عوامل مقررة في مستقبل الصين.

السبب الرابع والأخير، هو أن الصين مختلفة الآن لأن ثورة نفسية كانت قد حدثت هناك. لقد تغيرت أجزاء ضخمة من الموقف العقلي الصيني. ولم تبق الصين بعد اليوم ناظرة إلى الداخل وإلى الخلف، بل هي تنظر إلى الخارج وإلى الأمام أيضاً. لقد وضعت العلم فوق الإيمان (إلى درجة كبيرة جداً أحياناً) واطَّرحت قروناً من التقليد لكي تحقق حداثة. (يجب على الغربيين أن يحاولوا تخيل أن عليهم أن يرموا كل شيء له قيمة في تراثهم ـ الفلسفة الإغريقية، والقانون الروماني، وتعاليم اليهودية ـ المسيحية من أي نوع، بله الموسيقى الكلاسيكية وأشكال الفن الأخرى. ذلك هو ما فعلته الصين لتقاليدها الخاصة بها).

والمواقف نحو الأسرة تم تثويرها أيضاً. كانت الأسرة في العادة هي الدولة في الشكل المصغر، ورابطة الأب بالابن تعكس كالمرآة علاقة الحاكم بالرعية. أما الآن على كل حال، فإن العلاقة العمودية في الأسرة تأتي ثانياً بعد العلاقة الزوجية بين الرجل والزوجة. الشباب ينتصر على السن في المدن، ويصير الفرد أهم من الجماعة. ومرة أخرى، التغيير قاصر عن الكمال والمتساقط ضخم، وهو يجهد نسيج المجتمع إلى أقصى حد. ولكن الصين، بالمقارنة مع العديد من الدول النامية، صارت ينبوعاً للتفكير الحديث والعلمي، وللفردية المبادِرة إلى المشروعات. ويستطيع الشعب الصيني الآن أن يحلم بأحلام لم يسبق لأفراده قط أن حلموا بها، ويستطيعون أن يمتلكوا سلطة أكبر في أيديهم لتحقيق تلك الأحلام.

وهكذا فعلى العموم، يبدو لي أن الصين موجودة الآن في حالة مختلفة عن حالتها التي كانت عليها في معظم الفترات الانتقالية الأخرى في تاريخها. ولكن السؤال المطروح هو: هل القادة الصينيون يقتربون من هذه الحالة المختلفة اختلافاً كاملاً بالطريقة المختلفة اختلافاً كاملاً التي تتطلبها الحالة؟ ويجب علي أن أقول إن الجواب عن ذلك السؤال هو لا. ما لدينا في الصين هو أن مجتمع القرن الحادي والعشرين المتحرك مصفد إلى نظام سياسي لينيني الأسلوب مصاب بالتصلب الذي كان في الخمسينيات من 1950. والاقتصاد يتغير، والمجتمع يتغير، ولكن السياسات لا تتغير، وذلك قد بدأ في التسبب بمشكلات كافية في الحكم، بل في الاقتصاد كذلك، لتضع

صعود الصين إلى العظمة الممكنة موضع التساؤل. الصين أكثر قابلية للعطب وأكثر هشاشة مما تبدو.

إن الحزب يعرف أن عليه، لكي يبقى في الحكم، أن يقوم ببعض التغييرات السياسية، وقد فعل ذلك، فسمح للرأسماليين ولأصحاب المشروعات أن يكونوا أعضاء في الحزب، بداية. وقام الحزب أيضاً ببعض الإصلاحات الإدارية. وهناك تجارب مع ترشيح أكثر من مرشح واحد للمناصب داخل التسلسل الهرمي للحزب. هناك برامج لتدريب المسؤولين القانونيين، مثل القضاة، وذلك بإرسالهم إلى الخارج. وتحاول الحكومة أن تظهر أنها تستمع للشعب، وأنها صارت أكثر استجابة، وأنها تسمح بالمزيد من الالتجاء إلى الشعب داخل نظام الحزب الواحد لكيلا تسعى الأسماء المائة القديمة إلى الالتجاء إلى الشوارع من خلال المظاهرات. لقد تم إدخال محدود للانتخابات في القرى، وهو أخفض مستوى من النظام السياسي للصين، وكان القادة الصينيون ينظرون إلى أماكن مثل سنغافورة لتكون مثالاً للكيفية التي يحكمون بها بكفاءة أكبر من دون أن يكون عليهم أن يدخلوا نظاماً سياسياً غربي الأسلوب على نحو كامل.

ولكن هذه التغييرات كلها ضمن النظام الحالي. وقد سميت العملية باسم «اللينينية التشاورية» من قبل مراقبي الصين من أمثال ريتشارد بوم من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجيلوس، الذي يقول إن الحزب يحاول أن يسهل بروز التغذية المرتدة المجتمعية المنضبطة من دون تجشم المخاطرة الكبيرة للنفخ المرتد التلقائي السياسي أو للدفع المرتد الأخطر والمنظم المناهض لنظام الحكم. ولكنهم في النهاية، بوم وعلماء عديدون آخرون متخصصون بالصين، يرون مثل هذه المحاولات في الإصلاحات في الحدود الدنيا زقاقاً مسدوداً وعملاً غير منتج. سنغافورة (سكانها 3 ملايين نسمة) تصل في مرتبتها مثل مدينة صغيرة إلى متوسطة الحجم في الصين، وإصلاح مدينة متوسطة الحجم، أو جعلها غنية بما فيه الكفاية إلى درجة لا يهتم معها مواطنوها بالإصلاح السياسي، هو أمر أسهل بكثير من إصلاح قارة (ولا تهتم أبداً بافتقاد الصين للنظام القانوني الشفاف، حسب الأسلوب البريطاني، للخدمة المدنية الذي تمتلكه سنغافورة).

الفيل الموجود في الغرفة، أي الحقيقة الواضحة، التي لا يرغب أي قائد صيني في الحديث عنها، طبعاً، هي الإصلاح الديمقراطي نفسه. لقد جاءت الصين طريقاً طويلاً طويلاً في مائة عام. وكان المسار ملتوياً وصعباً، ولكن البلاد الآن قد حققت إلى حد كبير مبدأين من المبادئ الثلاثة للشعب التي أرساها مهندس ثورة 1912، سن يات سون. فالصين تحظى باحترام دولي (المبدأ الأول)، وعلى الرغم من أنها مازالت تعاني من فقر لديها، فهي مع ذلك تقريباً، تستطيع أن تطعم شعبها (المبدأ الثاني). ولكن الثورة لمَّا تنته، ومبدأ سن يات سون الثالث وهو إعطاء الحقوق، الحقوق السياسية، إلى الشعب لم يتحقق، وليس من الواضح أبداً أنه سيكون متحققاً في أي وقت قريب.

وهناك سببان لعدم التحقق: الأول، هو أن معظم قادة الحزب ما زالوا يؤمنون بالحق الإلهي تقريباً للحزب الشيوعي بأن يحكم وحده فقط. والثاني، هو أن كل الذين يؤمنون بالإصلاح السياسي خائفون، بسبب فشل ثورة 1912 وبسبب الحقيقة البسيطة وهي أن الصين لم يسبق لها قط أن نجحت في السير في الطريق الديمقراطي من قبل.

وكانوا خائفين أيضاً، في السنوات القريبة، من انهيار الاتحاد السوفييتي وإدراكهم أنه في الوقت الذي قد يكون فيه عدم الإصلاح خطراً، فإن البدء بالإصلاح قد يكون أخطر أيضاً. قد يكونون على حق. سل ميخائيل غورباتشوف لا غير، أو في الحقيقة انظر إلى آخر حكام من أسرة شينغ بين 1990 و 1912. لقد بادروا بالتغييرات وأنشؤوا مؤسسات جديدة في جهد منهم للإصلاح ولإنقاذ الدولة الإمبراطورية، ولكنهم بفعلهم هذا أطلقوا قوى من عقالها دمرت الدولة.

ومع ذلك، فقادة الحزب الشيوعي، باتخاذهم أسلوب «ثابتة الخطى وهي تمضي قدماً»، و«الاستقرار بأي ثمن»، وفي خوفهم الخالد من الفوضى، يدّخرون بذلك الكثير من المشكلات لأنفسهم. إنهم يخططون للطرق الجديدة، والمباني الجديدة اللامعة، والمطارات الجديدة، والأعمدة الفعلية لتمسك بها كلها قائمة. ولكنهم يتجاهلون الحاجة إلى بناء أعمدة لأي بيت سياسي جديد سيلزم أن تكون مبنية مقدماً، وذلك

لئلا يكرر انهيار البلاد في العام 1912 نفسه. وهذا يعني بناء الأعمدة من المؤسسات القوية والنظام القضائي المستقل، وأخذ السلطة من أيدي الرجال ووضعها في مؤسسات فعلية للحكم. ولكن المشكلة هي أن فعل ذلك سيكون، طبعاً، معادلاً لتوقيع الحزب لشهادة وفاته الخاصة.

إن الحالة تتحول إلى حالة أخطر من أن تهمل. وحين الإصرار على الاستقرار هناك نقطة تأتي بالفعل فتخلق المزيد من عدم الاستقرار، ويبدو أن تلك النقطة قد يتم الوصول إليها في وقت قريب في الصين. نيرون يعزف وروما تحترق، وما تحتاج إليه البلاد هو مخطط للتغيير السياسي التدريجي.

وفي الحقيقة، سبق أن كُتِبت وثيقة في أواخر الثمانينيات من 1980 تتفق تقريباً مع ذلك الوصف. لقد كتب مسودتها الإصلاحي الشيوعي رئيس الحزب الشيوعي جاو شييانغ (مع مساندة من القائد الأعلى دينغ شياو بنغ) وقُدِّمت إلى المؤتمر الثالث عشر للحزب الشيوعي في خريف 1987. ذلك زمان كان قبل مظاهرات 1989، حين كان قادة الصين السياسيون ينظرون إلى كل إمكانات الإصلاح السياسي. ولم تكن ورقة جاو وثيقة ثورية تعتنق الدَّمَقْرطة الكاملة، ولكنها كانت مهمة مع ذلك في وضع أول مقترحات للتحول نحو ما يدعوه ريتشارد بوم «الجماعة التسلطية الناعمة».

في ذلك الاجتماع، قبل عامين من قتل الطلاب في ميدان تيانانمين، اقترح جاو (الذي كان برأيي الشخصي واحداً من أعظم الرسميين الصينيين في الألفية الحديثة) عدداً من الإصلاحات السياسية، ومنها، مع أمور أخرى، فصل الحزب الشيوعي عن وظائف إدارة الدولة واقترح إصلاحاً لنظام الموظفين في الدولة ـ التسمية الاصطلاحية السيئة السمعة ـ لتقليل الرعاية السياسية إلى الحد الأدنى ولضمان الاعتماد على الجدارة في التعيينات والترقيات الحكومية، وشجع زيادة في صوت البرلمان وفي الاستقلال الذاتي التشريعي للبرلمان الذي كان يعمل على الموافقة المذعنة كختم المطاط، وشجع المجلس الوطني للشعب، ومجالس الشعب في كل المستويات، واقترح زيادة دور كلب الحراسة، لما يدعى بالأحزاب الديمقراطية الأخرى، وهي الأحزاب الموجودة حالياً لمجرد تزويد الحزب الشيوعي بورقة التين ليغطي مزاعمه بكون الصين دولة متعددة الأحزاب. واقترح تقوية حكم القانون.

ولم توضع مقترحات جاو قط موضع التنفيذ. وكان من قبل ذلك قد تعرض للنقد من أصحاب الخط المتصلب بوصفه ليبيرالياً أكثر مما ينبغي حين اندلعت مظاهرات صيف 1989، وخُتِم على سقوطه في 19 أيار/ مايو، حين ذهب إلى ميدان تيانانمين ليتحاور مع الطلاب كي يغادروا الميدان. وقد احتجز تحت الاعتقال المنزلي في بكين حتى وفاته، في العام 2005. والحزب، وقد صار مذعوراً عصبياً من سقوط الشيوعية في الكتلة السوفييتية، يستمر إلى هذا اليوم في توقيف أي إصلاح سياسي ذي مغزى من النوع الذي اقترحه جاو. ولكن المشكلات مازالت هي نفسها ـ وفي الحقيقة، هي أسوأ كثيراً مما كانت عليه في العام 1987. ويقول العالم ريتشارد بوم، «يستطيع المرء المحاجة في أن الطريق إلى بقاء الحزب الشيوعي الصيني على قيد الحياة يجب أن يمر بشكل محتوم من خلال خطة جاو للإصلاح التي وضعها في العام 1987».

وحقيقة أن الحكومة في الوقت الحاضر لا تبدو راغبة في دراسة هذا الأمر، تطرح على كل حال، إمكانية نتيجة ثالثة للصين. وهذا السيناريو هو أن الصين لا تنفجر في الداخل ولا تصير القوة العظمى التالية ولكنها فقط تندفع إلى نتيجة مفيدة لها، وتبقى إلى حد كبير كما هي. وكان قد طرح هذه المناقشة أقوى طرح العالم المقيم في الولايات المتحدة باي مينكشين في كتابه (تحول الصين الواقع في شَرَك). ويقترح باي أن ما يدعى تحول الصين قد لا يكون تحولاً أبداً، وأن عدم رغبة الحزب الشيوعي في أن يغير نظامه السياسي يعني أن اقتصاد الصين سيبدأ بالفشل بعد البداية المبشرة بالنجاح. ويكتب ليقول: «إن حزباً ثورياً سابقاً، مثل الحزب الشيوعي الصيني، بعد أن استولى على السلطة السياسية من خلال البندقية، من غير المرجح أن يسعى إلى موته من خلال الإصلاح الطوعي»، ويضيف أن الحزب قادر قدرة كاملة على إبقاء الغطاء فوق الاضطراب الذي يغلي وتتصاعد فقاعاته. ويكتب باي: فإذا لم تقع صدمة كبيرة كافية لإحداث كارثة سياسية سريعة التطور، فإن الصين تستطيع أن تدخل في فترة من الركود الطويل. ونظراً إلى أن الكثير جداً من النمو الاقتصادي للعالم ومن استقراره يتوقف على الصين في هذه الأيام، فإن مثل هذا الاتجاه نحو الانخفاض في النشاط الاقتصادي يمكن أن يكون له عواقب كبيرة بالنسبة إلى الاقتصاد الكوني.

والجزء الحاسم في هذا التحليل هو قوله «إذا لم تقع صدمة كبيرة». وأنا أعتقد، أنه إذا استمر كل شيء يسير بيسر نسبياً، وإذا استمر الاقتصاد في النمو (أو إن تباطأ قليلاً أيضاً)، فإن الحكومة الصينية قد تكون قادرة على أن تستمر كما هي لمدة من الزمن، من دون الكثير جداً من الإصلاح السياسي. وقد برهنت الحكومة الصينية من قبل على نفسها بأنها حرباء إيديولوجية بارعة، قادرة على أن تحول نفسها لتلائم البيئة المتغيرة. وهي قد تكون قادرة بشكل كبير على أن تستمر في تمويل نواحي عجزها وأن تبقي غطاء على الانشقاق الذي يغلي وتتصاعد فقاعاته أكثر فأكثر من الناس العاديين من الشعب.

ومع ذلك، فإن مثل هذا التحليل لا يأخذ بالحسبان إمكانية حدوث صدمة مفاجئة للنظام. والقلق الذي يساورني هو أن شيئاً ما يمكن أن يأتي من الميدان الأيسر،أي من الموقف البعيد عن المجرى العام، شيئاً ما لا يتوقعه أحد، بالطريقة نفسها التي ضربت بها الأزمة المالية الآسيوية جنوب شرق آسيا (مع أنها لم تضرب الصين) في المدة من 1997 - 1998. الصين مختلفة جداً عن تايلند وإندونيسيا، ولكن المعجزة الاقتصادية الصينية تحتوي على خطوط تصدع كبيرة تسير خلالها، وهي بالتأكيد قابلة للعطب أكثر مما تبدو. وإن انتشاراً ضخماً لأنفلونزا الطيور، على سبيل المثال، أو نقصاً عالمياً في النفط، أو زيادة كبيرة للتعرفة الجمركية على صادرات الصين إلى الولايات المتحدة، أو إقبالاً شاملاً على سحب المودعين لحساباتهم من المصارف الصينية — أيٌّ من هذه الأمور يستطيع أن يضع ضغطاً ضخماً على النظام الصيني. وأي شيء من الأشياء التي قد تشعل شرارة الانخفاض في النمو الاقتصادي، وهو النمو الذي يعتمد عليه الحزب اعتماداً كبيراً جداً من أجل شرعيته، سيكون شيئاً خطراً جداً بالنسبة إلى الحزب الشيوعي الصيني،لأن الفلاحين الغاضبين والعمال المسرحين يستطيعون، آنئذٍ، أن يبدؤوا في التسبب لبكين بمشكلات حقيقية.

بكين تحرك الدواسة بسرعة لتحاول التعامل مع كل هذه القضايا لئلا يكون لها أثر زلزالي على المجتمع الصيني، إذا حدث شيء ما من حيث لا يحتسبون وفي الزمان

الذي لا يتوقعون. ولكن هشاشة المجتمع الصيني مثيرة جداً للقلق، وهناك قدر محدود فقط من الإصلاح الذي يمكن أن يحدث ضمن النظام الحالي.

وبمحض انعطافة غير متوقعة من القدر في التقويم، فإن التاريخ الذي قد يمكن الالتفات إلى الخلف والنظر إليه بوصفه حاسماً في تقرير ما يحدث في الصين سيأتي بالضبط بعد مائة عام من إطاحة آخر إمبراطور للصين ومن ثورة 1912 الفاشلة. ففي العام 2012، إذا سار كل شيء حسب الخطة (وليس هناك أي ضمان لذلك)، فإن الرئيس هيو جنتاو وجيله المتجنب للمخاطر سوف ينزل عن أدواره القيادية في الحزب الشيوعي في المؤتمر الثامن عشر للحزب من أجل فسح الطريق لمن يسمون الجيل الخامس من القادة. أعضاء الجيل الخامس (ماوتسي تونغ مثل الجيل الأول، دنغ شياوبنغ مثل الجيل الثاني، جيانغ زيمين مثل الجيل الثالث، هيو جنتاو مثل الجيل الرابع) ولدوا في أواخر الخمسينيات من 1950 أو في الستينيات من 1960. وهكذا فهم بلغوا سن الرشد وبدؤوا مساراتهم الوظيفية في الحكومة بعد أن بدأ عصر الإصلاح في العام 1978. كثيرون منهم عاشوا ودرسوا في الخارج، وهم ملمون بالأنظمة السياسية الغربية. ويعتقد عموماً أنهم نوع مختلف من الحيوان السياسي عن الجيل الرابع، فهم أكثر عالمية، وهم أقل عقائدية، وهم أكثر مرونة، وهم سيحتاجون إلى أن يكونوا كذلك، لأنني أعتقد أن العقد القادم بعد 2012 سيكون هو الزمن الذي ستكون فيه المشكلات، وخصوصاً مشكلات الصين الريفية، منتشرة وخطرة على نحو لا يمكن معه إهمالها أو قمعها.

وقد يكون هذا العقد أهم عقد إلى درجة كبيرة في تاريخ الصين الطويل، اللامع، والتاريخ المعذب أحياناً، حين يجب على قادة الحكومة أن يقرروا إن كانوا يريدون البلاد أن تستمر في مستقبل مختلف أفضل، أو إن كانوا مستعدين للمخاطرة بإرسال 1,3 من بلايين الناس إلى الدائرة المأساوية من التاريخ الصيني مرة أخرى.

هذه أرض مجهولة. ونحن لا نعرف إن كانوا يقدرون على فعل ذلك. ونحن لا نعرف إن كانوا سيقبلون الحاجة إلى فعله. وإذا لم يفعلوه، لا يوجد، كما يقترح باي

مينكشين، أي ضمان من أن البديل الوحيد هو الانهيار. ولكنني لا أعتقد أن النظام الحالي يستطيع أن يستمر كما هو إلى الأبد، ولو لم يكن هناك أي حالة حاسمة كبيرة أيضاً، ولو لم يأت أي شيء من الميدان الأيسر، أي بشكل غريب أو شاذ، ويحتمل أن يؤدي العدد المتنامي من الحالات الحاسمة الصغيرة إلى إضعاف النظام وأن يقود إلى مشكلات خطيرة. وفي الأعوام التي ستتلو مؤتمر الحزب في العام 2012، فإن المزيج المكون من السخط الريفي المتصاعد ومن الجيل الجديد من القادة، وهو الجيل الذي يؤمل أن يكون القادة فيه أكثر قدرة على تقبل التغيير السياسي، هو مزيج يمكن أن يعني، ويجب أن يعني، أن بعض الإصلاح السياسي سيكون مؤسساً.

وأما الآن، فإن القادة الصينيين، مع ذلك، يعملون بجد للإبقاء على النمو الاقتصادي في الوقت نفسه الذي يشنون فيه حملة كبيرة لتشجيع الناس لينحوا نحو «مجتمع منسجم». والمشكلة هي أن النمو الاقتصادي الآن يخلق عدم انسجام بالقدر نفسه الذي يخلق فيه الانسجام.

وبالإضافة إلى المشكلات الاقتصادية، هناك ببساطة تناقضات عديدة جداً في المجتمع الصيني. فالحزب يرغب في خلق مجتمع حديث. ولكنه لا يريد أن يسمح بقيام مجتمع مدني قوي جداً من الكنائس، والاتحادات العمالية، والجمعيات، والمنظمات الاجتماعية الأخرى التي تدعو إليها الحاجة لبناء أمة حديثة. وهو لا يريد للشعب الذي يستخدم الإنترنت أن يصل إلى معلومات حساسة، ولكنه يحتاج إلى التقانة لتصير الصين البلد الحديث الذي يريده الحزب أن يكون. ويحتاج الحزب إلى أن يروج المعرفة لكي ينافس، ولكن المعرفة خطرة. ويحتاج الحزب إلى الشعب المُخوَّل المُمَكَّن لكي يصير قوياً، ولكن الحزب لا يستطيع ترك الشعب أن يكون مخولاً ممكناً جداً.

وعلى الرغم من كل التقدم الاقتصادي الحقيقي جداً، فإن هذه التناقضات يمكن أن تبدأ بالتسبب ببعض المشكلات الحقيقية جداً في الوقت الذي يصير فيه المجتمع الصيني أكثر حراكية أيضاً، وفي الوقت الذي يصارع فيه النظام السياسي صراعاً أكثر أيضاً ليستمر في المستوى نفسه. إن الحزب يحتاج إلى بعض القادة من أصحاب

الرؤية لوضع خطة من أجل المستقبل، خطة من أجل نوع ما من التحول السياسي. ولكن في بلد مازال يُعلي قيمة الاستقرار فوق كل ما عداه، لا يبدو أن يكون ذلك النوع من الرؤية قادماً.

أقضي الصباح الأخير لي في شنغهاي في قاعة معرض التخطيط الحضري للمدينة. وتوجد لافتة في الخارج، باللغة الصينية واللغة الإنجليزية، وهي تهيئ النغم: أشعل آثاراً جديدة في روح طليعية. والمعرض الرئيسي هو نموذج مصغر للمدينة، يبين كيف أن شنغهاي ستكون من كبريات المدن في القرن الحادي والعشرين. والمعرض غير عادي. فهناك تفاصيل لميناء يانغشان الجديد في المياه العميقة، والذي سيكون قريباً أكثر الموانئ عملاً في العالم، وهو مبني على ثلاث جزر، تبعد عشرين ميلاً عن الشاطئ، ويرتبط بالأرض الرئيسية في جنوب شنغهاي تماماً بأطول جسر بحري في العالم. ثم هناك تحويل جزيرة شونغمنغ، وتبلغ مساحتها أكثر من ثلاث مئة ميل مربع من الأراضي الممتازة في وسط نهر يانغسي، إلى منطقة تقانة عالية، ومنطقة بحث وتطوير خضراء. ومنطقة سكنية، تربط مع شنغهاي بنفق مسافته أحد عشر ميلاً تحت النهر. وهناك بعد ذلك المزيد من المعارض عن «التحويل إلى المعلوماتية» لمدينة شنغهاي، وهذا يتضمن بيانات مثل هذا التالي:

نحن نعتقد أننا بمساعينا، سوف تتحقق كل أحلامنا في العام 2010. سوف يظهر في شنغهاي الرقمية منصة للخدمات العامة تكون غنية في محتواها، ويتم تقاسمها على نحو عال ومترابطة فيما بينها. وستكون المنصة معلماً يؤشر لشنغهاي حين تصير واحداً من المراكز الدولية، المالية، والاقتصادية ومراكز التجارة والشحن.

اللغة فيها مبالغة، والتنفيذ ينقصه التشاور مع الشعب بشكل مخيف، ولكن مقياس الرؤية ضخم. وإطارات الزمن طويلة، تصل إلى عشر سنوات، وإلى خمس عشرة سنة، وأنا أجد نفسي متجولاً في المعرض أحاول أن أحدق في عيون قلة من الأجانب الآخرين الموجودين هناك، لمجرد أن أستطيع أن أرفع حاجبي وأقول لهم «هذا يبعث على الخوف تماماً، أليس كذلك ؟» وأنا أعرف أن من المحتمل أنهم يشعرون نفس الشعور.

وأنت بعد أن تبدأ بالتفكير من خلال السؤال: هل يستطيع كل هذا أن يمر؟ تجد نفسك متفكراً، وماذا إذا مر؟ ماذا سيعني هذا كله لبقيتنا؟ وإذا أعادت مدن مثل شنغهاي وبكين وتيانجين وشونغشينغ صنع نفسها لتتحول إلى مراكز مصنَّعة، ومراكز بحث وتطوير متحولة للمعلوماتية حسب ما تريد أن تكون، فهل تزيد كلها في تهديدٍ للغرب؟ وإذا كانت تزيد فكيف سيكون على الغرب أن يجيب؟

من الناحية الاقتصادية، طبعاً، تعد الصين من بعض النواحي تهديداً، إذا كنت تحسب التهديد بأرقام عدد الوظائف الغربية التي خسرها الغرب لمصلحة المصانع الصينية. فالصين ما زالت هي المركز الرئيسي للتصنيع الكوني، وإذا كنت أنت واحداً من الشعب في وسط أمريكا (أو بريطانيا أو في أي مكان) من الذين انتقلت وظيفتهم إلى شنغهاي، فإن تطور الصين سبب محتوم للغضب.

وفي ضوء هذا، فإن من الحق القول إن الحكومات الغربية تحاول أن تحمي صناعاتها الخاصة بالقدر الذي يكون فيه ذلك ممكناً وعملياً. ومن الحق أيضاً استبقاء الضغط على بكين في قضايا مثل خرق حقوق الملكية الفكرية الغربية، والمحافظة على ممارسة الضغط من أجل تحسين حقوق العمال في الصين، من أجل العمال الصينيين ومن أجل إعادة نوع ما من الإنصاف إلى التنافس. مثل هذه السياسات سوف تخلق احتكاكاً مع بكين، ولكن قدراً معيناً من الاحتكاك الاقتصادي أمر محتوم والصين تنهض.

ومع ذلك، فإذا دُفِعت فكرة «تهديد الصين» دفعاً بعيداً جداً، وصارت اللغة عاطفية ومسيسة أكثر مما يجب (كما تصير أحياناً في الولايات المتحدة)، فإن هناك خطراً في خلق نبوءة العداوة التي تحقق نفسها، فيما وراء الاحتكاك المحتوم الذي ينجم عن تطور الصين. والسماح للمشكلات التي تقوم في العلاقات بأن تحدد سياستنا كلها مع الصين هو أمر تبسيطي ساذج وخطر، وذلك لأن الكثير جداً من الازدهار الاقتصادي الغربي من التسعينيات من 1990 وإلى القرن الجديد كانت تقوده الصين. وسواء أكان الصينيون الحضريون الشباب المهنيون والشركات الصينية هم الذين يشترون السلع

والبضائع الغربية وبذلك يعطون النهضة إلى أسواق الأسهم والسندات والصناعيين، أو كانت الحكومة الصينية هي التي تشتري سندات خزينة من حكومة الولايات المتحدة وبذلك تحافظ على مستويات الفائدة البنكية الأمريكية منخفضة، فإن نهضة الصين تنفع الغرب بلا أدنى شك في عدة نواح.

في كتابه المتالق، (الصين تهز العالم)، يوضح المراسل السابق في بكين للفاينيشال تايمز، جيمس كاينج، هذه النقطة بوقوفه خارج أسواق وول ـ مارت في روكفورد، في إلينوي، وسؤاله المتسوقين من وسط أمريكا إن كانوا يحسون بالشكر للصينيين من أجل كل السلع الرخيصة التي يستطيعون شراءها، ومن أجل معدلات الفائدة البنكية المنخفضة التي يدفعونها في رهونهم. وليس مثيراً للاستغراب أنه يحصل على بعض النظرات المضحكة. ولكن نقطته، ونقطتي، هي أن الصين، في الوقت الذي تؤذي فيه بالتأكيد بعض مناطق اقتصادات الغرب، هي أيضاً تعمل الكثير من الخير للجيوب الغربية بطرق أقل بكثير قابلية للتعرض للرؤية. وهكذا يجب علينا أن نتأكد من أننا، في الوقت الذي نستمر فيه في التصدي للصين بجسارة في مجالات مهمة، فإننا لا نوقع الضرر على مصالحنا الخاصة في هذه العملية.

وعلى سبيل المثال، يحتاج الغرب من الصين إلى أن نعيد تقويم عملتها لأن تخفيض قيمة اليوان في الوقت الحاضر يعطيها ميزة غير عادلة في التصنيع. ولكن اقتراح مسودات قوانين في مجلس الشيوخ يمكن لها أن تعاقب الصين بتعريفات جمركية تجارية ضخمة إذا هي لم تُقدِم على القيام بعمل إعادة تقويم ضخمة، وفورية يمكن أن ينتهي إلى أن يكون معيقاً لتحقيق الأهداف، وربما يقلل تدفق التمويل الصيني لدعم الدولار، مع عواقب جدِّية تصيب الاقتصاد الأمريكي. فإعادة تقويم مفاجئة جداً تستطيع أيضاً أن تبطئ الاقتصاد الصيني، مع وجود كل الإمكانات لحدوث عدم الاستقرار الاجتماعي الذي يمكن ذلك أن يجلبه. الصين القوية قد تطرح مشكلات بالنسبة إلى العالم، ولكن الصين الضعيفة أو المنهارة ستكون أسوأ بمرات عديدة.

باختصار، أنا أعتقد أن علينا أن نخرج من خط التساؤل «أصديق أم عدو؟» وفي الأعوام القادمة، يمكن للصين بوضوح أن تصير واحداً من الاثنين، بناء على أي طريق ستنتهي إليه حالتها السياسية المحلية. وبالنسبة إلى الوقت الحاضر، مع ذلك، فالصين خليط من الاثنين، وذلك يعتمد على المجال الذي تنظر أنت إليه. وهكذا يجب أن تعامل بصفتها خليطاً من الاثنين، مع سياسة خارجية معقدة ودقيقة تنظر إلى حماية المصالح الاقتصادية الغربية بقدر ما يمكن، ولكنها تتجنب أيضاً الانحدار إلى الدهمائية العاطفية العلنية التي ميزت العلاقة أحياناً.

من الناحية العسكرية، تنمو الصين نمواً سريعاً أيضاً، مع أنك لن ترى الكثير من التبجح العلني عن ذلك. إن بكين تصرف تقريباً 50 بليون دولار على تحديث قوتها العسكرية في كل عام. (الولايات المتحدة تصرف أكثر من 400 بليون دولار سنوياً). ولكن الصين تبدأ من موقف متخلف جداً. ويقول الخبراء العسكريون إن الصين تتخلف عن الولايات المتحدة في تقانتها العسكرية بمدة تساوي ثلاثين أو أربعين سنة. بل إن الصين حين اشترت أو طورت تقانات جديدة كانت تعاني من مشكلات ضخمة في التنسيق بينها جميعاً. والصين لا تملك أي حاملات طائرات، والسفن الحربية في أسطولها (والذي يعطيك اسمه الرسمي: أسطول جيش التحرير الشعبي، فكرة عن الأولويات في قواتها العسكرية وأين كانت دائماً) نجحت في عبور المحيط الهادئ مرات قليلة فقط، بل نجحت أنئذٍ مع بعض الصعوبة أيضاً.

ويقول الصينيون إنهم ببساطة يجددون قواتهم العسكرية لتصل إلى مستوى مناسب لبلاد في حجم بلادهم، وسيخبرك كل صيني تتحدث إليه نفس الشيء: من الناحية الفلسفية، الشعب الصيني ليس شعباً توسعياً. ويقولون: «نحن نبني جدراناً لنبقي الآخرين في الخارج، ونحن لا نخرج لنغزو الآخرين».

أنا لست مقتنعاً أن صعود الصين سيكون سلمياً بشكل كامل. ومن المؤكد، أن التاريخ لا يقدم دروساً مطَمئنة جداً بشأن صعود القوى الصناعية الجديدة. إذا كان قادة الصين يستطيعون الإمساك بالبلاد معاً، وإذا استمر الاقتصاد الصيني بالمحافظة على الازدهار، فهناك إمكانية في الأمد الطويل أن تستطيع القومية الصينية الجديدة

أن تؤدي إلى نوع ما من المشكلات العسكرية مع جيرانها (خصوصاً مع اليابان). أما في الوقت الحاضر، فأنا لا أعتقد أن قادة الصين يستيقظون في الصباح وهم يتساءلون: أي البلدان هي التي يستطيعون تهديدها في المنطقة؟ سواء الآن أو في عشرين سنة قادمة. أنا أعتقد أن من المحتمل أنهم يستيقظون ويتساءلون، كيف، في كل الاحوال، سنمسك بهذه البلاد معاً؟

وذلك هو السبب الذي يشعر الصينيون من أجله بأنهم سعداء للغاية (وبهدوء) بشأن الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة في العام 2001. لقد انكشف عدو أمريكا الجديد، وهو ليس الصين، وهكذا تستطيع بكين أن تركز على تعويض الوقت اقتصادياً وهو الوقت الذي هدرته حين قامت بثورة تحت الرئيس ماو. وذلك هو السبب الذي تملك الصين من أجله أيضاً مثل هذه السياسة الخارجية المهدِّئة في العديد من المناطق الكثيرة جداً، وتريد بهذه السياسة أن تتجنب استثارة قتال مع أي طرف (وخصوصاً الولايات المتحدة) لكي تركز على قضاياها الداخلية. والاستقرار محلياً والسلم دولياً هي كلمات السر عند الصين، وهي تسعى إلى تقديم نفسها بوصفها لاعباً مسؤولاً على مسرح العالم. ولذلك يجب علينا أن نكون حريصين أيضاً على ألا نبالغ في تهديد الصين العسكري (فهي تملك الحق في امتلاك قوات عسكرية حديثة، بعد كل شيء)، ولكن علينا في الوقت نفسه أن نراقب بحذر كيف تتصرف الصين نحو جيرانها.

الورقة الطائشة، أي العامل غير المعروف ولا يمكن التنبؤ به في الموقف كله، هي تايوان. وترى بكين أن الجزيرة التي يبلغ عدد سكانها 22 مليون نسمة والمقابلة لساحلها الجنوبي الشرقي هي جزء من الصين، وإذا أقدم رئيس تايواني على عمل شيء ما سخيف، مثل إعلان الاستقلال الرسمي، فإن من الممكن أن تكون هناك مشكلات حقيقية. ولكن كما سبق لي أن رأيت في بلدة كونشان، خارج شنغهاي قليلاً، فإن 17 بليون دولار مستثمرة في الأرض الرئيسية من رجال الأعمال التايوانيين تجعل هذا غير محتمل الوقوع، على الرغم من أن هناك عدداً متنامياً من التايوانيين الذين يريدون أن ينفصلوا عن الأرض الرئيسية للصين إلى الأبد.

إذا وضعت تايوان جانباً، فأنا أعتقد، في الأمد القصير إلى المتوسط، أن هناك تهديداً أكبر من أي تهديد تطرحه الصين من الناحية العسكرية وسيكون هو تهديد الصين لبيئتها الخاصة.

إن انحطاط أرض الصين، وهوائها، ومائها قد وصل مستويات حرجة. واجتثاث الغابات، والتصحر، بله ارتفاع معدلات السرطان، وعيوب الولادة بسبب الماء والهواء الملوثين صارت بشكل متزايد مشكلات ضاغطة محلياً. وصار التلوث أيضاً سبباً رئيسياً للاحتجاج بين الفلاحين الذين تقع أراضيهم قرب المصانع. وإن فقدان النظام القانوني الفعال وقيام التناقضات في المستوى المحلي من الحاجة إلى المال الذي تنتجه تلك المصانع المسببة للتلوث يعني أن التطبيق المحلي أو فرض التنفيذ المحلي لقوانين الحكومة المركزية الصارمة على نحو متزايد هو في أحسن الأحوال غير منتظم. ومرة أخرى، تعود هذه المشكلة إلى الحاجة الملحة للإبقاء على الاقتصاد نامياً من أجل منع حدوث السخط الاجتماعي، وهي حقيقة يعيها جداً كل من المسؤولين المحليين ومسؤولي الحكومة المركزية جميعهم. وعلى قمة التلوث، هناك النقص المزمن في الماء في الصين الشمالية. وكيف يمكن لبلاد أن تستمر من دون ماء؟ العديد من أنهار الصين الكبيرة وروافدها تتحول إلى أنهار جافة نظراً إلى أن المدن الصغيرة في أعلى المجرى النهري تحول الماء الذي تدعو الحاجة إليه من أجل صناعات تلك المدن الخاصة المتنامية.

ويجري تصدير مشكلات الصين البيئية على نحو متزايد. فهناك الكثير جداً من الهواء الملوث في الصين الجنوبية إلى درجة أن هونغ كونغ يلفها في مرات كثيرة غطاء من الدخان والضباب. بل يجري أيضاً تصدير تأثيرات اجتثاث غابات الصين: لقد منعت الحكومة قطع الشجر داخل الصين، ولكنها مازالت تحتاج أطناناً وأطناناً من الخشب، ولذلك فالغابات في جنوب شرق آسيا، وإفريقية، وأمريكا اللاتينية يجري استنفادها حتى النضوب لتغذي الوحش الاقتصادي الصيني.

والصين أيضاً هي أكبر مستورد للعديد من المعادن والبضائع، التي يعمل استهلاكها هي وحدها على الإبقاء على أجزاء من اقتصاد العالم عائمة من دون

مشكلات. منها المعادن الخسيسة، والبتروكيماويات، ومواد الطعام، وأي شيء وكل شيء يجري امتصاصه لإرضاء الطلب الصيني. ويجري فتح مناجم في أستراليا لتزويد الصين فقط.

وأخيراً، فبالإضافة إلى كل المواد الضارة التي تضخها الصين إلى الخارج، هناك قضية ما تضخه الصين إلى الداخل: فهناك الحاجة إلى النفط، وإمكانية النزاع الناشئة من تلك الحاجة. فكي تبقى الصين على اقتصادها مستمراً، وبناءً على ذلك لكي تبقي على شعبها سعيداً، يجب عليها أن تستمر باستيراد المزيد من النفط. لقد تجاوزت الصين من قبلُ اليابان بوصفها ثاني أكبر مستهلك لمنتجات النفط بعد الولايات المتحدة. وطلب الصين يرتفع بمعدل 10 أو 15 بالمائة في العام، ومخرجاتها من النفط ترتفع بمعدل 2 بالمائة فقط تقريباً. وتضاعفت واردات الصين من النفط بين عام 2000 و 2005. والقسم الكبير من أسباب الارتفاع الضخم في أسعار النفط الكونية في أثناء ذلك الوقت كان هو القسم الناجم عن الطلب الصيني المتزايد.

والمشكلة هي أن العالم صار معتمداً على الاقتصاد الصيني المزدهر إلى الدرجة التي ما بقينا نستطيع معها أن نحتمل بالنسبة إلى الصين ألا تستمر بالمحافظة على استهلاكها بهذه الطريقة، على الرغم من أنه استهلاك ينزل الخراب الفادح بالبيئة.

وهكذا، فهنا تناقض واحد أخير يضاف إلى الكوم: وهو أننا نحتاج من الاقتصاد الصيني أن يتباطأ في الوقت نفسه الذي نحتاج منه أن يبقى مزدهراً.

في قلب شنغهاي تماماً، ويدعم تقاطع اثنين من الطرق السريعة المرفوعة وهما من أشد الطرق ازدحاماً، يقوم عمود فولاذي ضخم، يبلغ سمكه خمس عشرة قدماً. وقد حُفِر على العمود بشكل نافر تنين صيني ضخم ملتوٍ. وهو يمتد من أسفل العمود تماماً إلى القمة تماماً ويبلغ بالتأكيد خمسين قدماً طولاً على الأقل. ويبدو التنين غير مؤتلف نوعاً ما مع ما حوله. لأن أي جزء آخر تقريباً من نظام الطرق المرفوعة الجديدة في شنغهاي يمكن أن يكون في لوس أنجيلوس أو في شيكاغو، ولكن من غير المحتمل أنك سترى تنيناً ملفوفاً حول عمود مثل ذلك في مدينة أمريكية. يبدو أن هناك الكثير من التاريخ متجمع حول ذلك العمود، والكثير من الذكريات، وتراث حضارة كاملة عَلِقت

في دوامة جسم التنين الطويل النحيل وذنبه الكاسح. في وسط مدينة تحاول، أن تكون حديثة جداً وتنجح في ذلك، يبدو أن العمود يقول: «نحن مازلنا هنا، نحن أحفاد التنين، مازلنا هنا، ومازلنا صينيين».

من الزمن الذي وصلت فيه القوى الغربية وبدأت بالطغيان على الصين في القرن التاسع عشر، كانت هذه البلاد عازمة على الوقوف في العالم وعلى أن تصير قوية من جديد. وكان الصينيون راغبين في فعل هذا بأي تكلفة، وأخيراً يبدو أنهم ينجحون. ولكن التكلفة كانت عالية. فالحزب الشيوعي وجه اللوم إلى التعاليم والفلسفات التقليدية عن ضعف البلاد، وشن هجوماً شرساً على نحو غير عادي على الثقافة الصينية، واستأصلها من الناحية العملية.

في الوقت الذي يكون فيه مفهوماً وجود بعض خيبة الأمل بشأن إضعاف قوة التقاليد الصينية، لم يكن الشيوعيون بحاجة إلى شن هذا الهجوم الغاضب. فتايوان، واليابان، وكوريا الجنوبية، تطورت جميعها من الناحية الاقتصادية على الرغم من أنها مجتمعات مستندة إلى الكونفوشيوسية أيضاً. ولكن الحزب الشيوعي اعتقد أن كل شيء كان يجب أن يُرمى. والآن بعد أن مرت العاصفة المجنونة من التدمير الماوي، يستفيد الاقتصاد الصيني بلا شك من غياب الاعتراضات الأخلاقية، والدينية والتقليدية التي تستطيع أن تبطئ سعيه إلى الثروة. ولكن الثقافة الصينية دمرت، وأحياناً، يعجب المرء، بصفته محايداً من الخارج، إن كان قد أبقي على أي شيء من الثقافة الصينية. في محاولة لكسر سلاسل التاريخ واستعادة الصين لعظمتها الماضية، هل قام الحزب الشيوعي بالتدمير الكامل للتراث التاريخي للبلاد، وبتدمير نفس جوهر الصينية التي كان يحاول حسب ما يفترض أن ينقذها؟

وأنا ألحظ التنين على العمود ثانية ركبت سيارة أجرة تحت الطرق السريعة المرفوعة لأقابل يو شا، مذيعة برنامج الحديث في الراديو التي شاركتها في طبق من البتزا قبل أن أبدأ رحلتي. ونتقابل في مقهى بار في مقاطعة شوجياهوي الحيوية، مقابل الكنيسة الكاثوليكية الضخمة تماماً. وأخبرها بشأن التنين، وتبتسم. وأسألها عن ذلك الجوهر الصيني الذي لا يمكن تعريفه، وإن كان ما زال موجوداً أو أنه كله قد

اختفى تماماً. وأقول لها، إنك لا تشعرين به في الوقت الحاضر، وبالنسبة إلى محايد خارجي يأتي وهو يريد أن يخبرُ الصين، لا ليخبر صورة كربونية عن الغرب، فإن ذلك يبدو محزناً قليلاً. ولكن يو شا تمتلك مقارنة أخرى.

وتقول: «أنا أعتقد أن الصين مثل بيت جميل قديم يوشك أن ينهدم. والناس يسكنون فيه، وبعضهم يريد أن يقيم توسعات أو يقوم بعمل تجديدات. ولكنهم في النهاية لا يشعرون بالراحة وهم يعيشون في البيت القديم، إنه لا يلائمهم، وهكذا فقد قرروا أن يهدموه. ويمشي السكان المقيمون تمشية أخيرة واحدة عبر البيت، وفجأة يجدون شيئاً ما ثميناً جداً، بعض الكنوز التي لم يعرفوا أنها كانت موجودة هناك من قبل. وحين كانوا سيهدمون البيت، حينها فقط فكروا أن ينظروا. هذا ما أريد أن يحدث مع الصين في السنوات القليلة التالية، قبل أن نهدم كل شيء، نعيد اكتشاف شيء ما ثمين في غرف البيت القديم، شيء ما صيني، شيء ما مخبوء ينتظر ليعاد اكتشافه».

وهي لا تستطيع أن تضع أصبعها تماماً على هذا الشيء وماذا سيكون، لا تستطيع إلا أن تقول إن الشعب الصيني، على الرغم من التغريب، لن يتغير بشكل كامل. إنها تقول ببساطة إنه في غضون سنوات قليلة، بعد أن يكون كل واحد قد هدأ قليلاً، وحين تكون المطاردة المسعورة خلف المال أقل، سوف يود الناس أن يبدؤوا معاودة اكتشاف صينيتهم. وهي تقول إن هذا قد بدأ يحدث من قبل الآن قليلاً.

وتستمر في القول وهي تركز على كلماتها بعد أن تتوقف لترتشف شاي الفاكهة الخاص بها: «كثيرون من الشعب الصيني لا يعرفون ما هي الصين، إنهم ينظرون إليها من خلال عيون غربية. ولكنني أعتقد أننا إذا سرنا مساراً غربياً كاملاً، فلن ننجح. نحن نحتاج إلى أن نجد طريقاً يستبقي شيئاً ما من الجوهر الصيني. كثيرون من الناس يوافقونني. إنهم فقط لا يعرفون أين ينظرون. وأنا لا أعني العودة إلى الماضي، ولكنني أعني استبقاء عنصر من المدخل الصيني. فنحن إذا رأينا ما نخسره، فربما سنستعيده آنئذٍ. إننا في هذه المرحلة المؤلمة جداً والصعبة جداً من التحول، وهي المرحلة التي ضعفت فيها سلطة القيم القديمة ولم يترسخ ويثبت فيها بعد نظام القيم الجديدة. ولكنني أعتقد أننا نستطيع أن نجد طريقنا الخاص بنا، وهو طريق سيكون صينياً على نحو خاص».

إن يو شا، مثل الكثيرين جداً من الصينيين، تأخذ بالرأي طويل الأمد، وهي تتحدث على أساس عقود قادمة. وعلى الرغم من كونها شابة، وعصرية، ومتغربة جداً كما هو واضح، فهي لا تؤمن من الناحية السياسية، أن مستقبل الصين سوف يتبع المثال الغربي أيضاً، ولا هي ترى أيضاً أن على الصين أن تفعل ذلك. وتقول: «لا أرى أن النظام الديمقراطي، ونظام تعدد الأحزاب، هو النظام الأفضل بالنسبة إلى الصين. وأنا لا أقول إن ذلك لن يحدث قط، ولكني فقط لا أرى أنه سيحدث بالضرورة».

وأسألها أخيراً عن كل الدعاية الجديدة التي يدفع بها الحزب الشيوعي، وكم منها تبدو على نحو مثير للدهشة دعاية كونفوشيوسية، وكأن الحزب قد نسي بغضاءه للصين القديمة ويقوم هو نفسه بالبدء بشيء ما من النهضة ليحاول غرس بعض الأخلاق في المجتمع. إن مفاهيم الرفاهية المعتدلة والانسجام والحملة الحديثة التي شجعت المسؤولين على «حكم الأمة بالفضيلة» كلها مفاهيم كونفوشيوسية.

وتقول يو شا إنها لا تحب شعارات الدولة. وتقول: «إنها خارجية. إنها لا تدخل إلى داخل الشخص، كي يستطيع أن يتصرف بناء عليها، ويكون متحولاً بها».

وتريد يو شا كثيراً جداً أن تكون صينية. وهي صينية، طبعاً، ولكنها تريد أن يكون ذلك الجوهر الصيني جزءاً منها ومن مستقبل بلادها على نحو أكبر، وبطريقة أعمق، طريقة يبدو أنها قد وضعت مؤقتا في غير مكانها. وفي الوقت الذي مازال فيه الناس الريفيون العديدون منهمكين في توفير الحاجات الأساسية من إطعام عائلاتهم، يبدو الأمر في المدن وكأن المزيد المزيد من الناس يشعرون بهذه الطريقة، وذلك بصفته رد فعل على الهجوم المفاجئ للمادية الغربية التي أشبعت الصين وزادت الإحساس المتزايد للقومية وللكبرياء الوطني الذي رجع معها.

قبل مائة عام، اعتقد كثيرون من المثقفين الصينيين أنه كان على الصين أن تدمر نفسها من حيث هي ثقافة لكي تنقذ نفسها بوصفها أمة. أما الآن، فإن تلك المشاعر معكوسة نوعاً ما. وبعد قرن من التحطيم الثقافي للقيم المتوارثة والعادات القديمة، يقول كثيرون من الشعب الصيني الحضري، «كفى! نحن نريد أن نكون صينيين ثانية. ونحن نريد أن ننقذ أنفسنا من حيث نحن ثقافة، ونحن نريد أن ننقذ هويتنا الصينية،

وربما نستطيع آنئذٍ فقط أن نعاود اكتشاف أنفسنا بصفتنا أمة». هذه العملية ما زالت إلى حد كبير تمر في مرحلة انتقالية، لأن البلد نفسه يمر في حالة انتقالية، ومن العسير رؤية ما الذي سيتكشف في الطرف الآخر ومن الذي سيصير معروفاً. ولكن رؤية بعض الشعب الصيني وهم يحاولون استصلاح التراث الذي كان أجدادهم وآباؤهم سعداء في اطِّراحه (أو قيل لهم أن يطَّرحوه) هو أمر فاتن ورائع. وربما لن تكون الصين في النهاية مختلفة جداً عن اليابان وعن كوريا الجنوبية، ستكون مليئة بأناس عصريين هم أيضاً مواطنون فخورون ببلادهم الخاصة بهم وورثة فخورون بتقاليدهم الخاصة بهم، مع معرفة بأنفسهم تحدد من هم وإلى أين هم سائرون. ومن الناحية المثالية سيكون ذلك نوعاً من الحل لأزمة الهوية الصينية التي امتدت طوال قرن ونصف، التي قضت على الكثير جداً من الآمال وقضت على الكثير جداً من النفوس.

في اليوم التالي أطير عائداً إلى بكين لأودع توديعاتي الأخيرة. وقبل أن أطير إلى لندن أجري في ماراثون بكين، متمايلاً في مشيتي عبر أربع ساعات ونصف من أداء أقل من أن يترك أثراً ملحوظاً. والناس الصينيون يهتفون لي في كل خطوة من مسافة 26.20 من الأميال عبر مدينتهم. «أسرع، أسرع، يا رجل المحيط، فأنت تستطيع أن تفعلها!»

أتطلع بشوق إلى رؤية أسرتي بعد صيف طويل من الافتراق، وفي وجوه عديدة أعرف أن الوقت قد حان لأغادر الصين. ولكني أعرف أنني سأفتقدها وأشتاق إليها: الحماسة، والتفاؤل من المدن واليأس من الريف، ومجرد الإثارة لأمة في حالة انتقال صاخبة. وسوف أفتقد المكالمات على هاتفي الخليوي الجوال في ساعات متأخرة من الليل من الفلاحين الغاضبين أو العمال المسرحين. وسوف أفتقد الطاقة ومآزق الحياة والموت، والأمل والمأساة، وهي الأمور التي يكون كل شيء فيها مهماً أهمية كبيرة جداً. وسوف أفتقد الامتلاء بالأمل والشوق إلى مستقبل أفضل. في الغرب، يفترض أن مستقبلنا الأفضل هو هنا من قبل الآن، ولذلك فالحياة لم تبق هي نفس الرحلة فعلياً. نحن قد وصلنا محطتنا الأخيرة (هكذا نرى)، وهكذا جلسنا، ورفعنا أقدامنا إلى الأعلى واسترخينا، وصببنا لأنفسنا مشروباً كبيراً. في فرنسا، يحدد القانون ساعات

العمل للعمال بخمس وثلاثين ساعة من العمل أسبوعيا. وكثيرون من الصينيين يعملون ذلك في يومين.

وأهم من ذلك كله فسوف أفتقد الشعب الصيني وأشتاق إليه، الشعب الصيني الرائع. فالقلب الصيني كبير جداً، جداً للغاية، ولكنه كان دائماً محصوراً جداً ضمن حدود، أولاً بالثقافة الكونفوشيوسية، وبعدئذٍ بالشيوعية. أما الآن، ووسط كل المشكلات، ولأول مرة يشعر كأن القلب الصيني الكبير، الكبير سوف يمتلك بعض الحيز ليتوسع ولينمو.

قال الرئيس ماو مرة إن الشعب الصيني كان صحيفة بيضاء من الورق كان يستطيع أن يكتب عليها كلمات الاشتراكية. وأنا لم يسبق لي قط أن وافقت على ذلك البيان. وبالتأكيد فإن الفكرة الجوهرية كلها بشأن الشعب الصيني قبل العام 1949 هي أن الصينيين لم يكونوا صفحات فارغات بيض ولكنهم كانوا صفحات قد كتب الكثير جداً من الكتابة عليها. صفحات من التاريخ، وصفحات من التعاليم الكونفوشيوسية هي التي جعلت من الصعب عليهم أن يستجيبوا حين وصلت القوى الغربية لتكتب كلماتها الخاصة المختلفة جداً فوق صفحاتهم.

بعد ثلاثين سنة من الماوية العسكرية، وبعد ستين عاماً هي مجمل حكم الحزب الشيوعي، بعدها فقط يصير الشعب الصيني صفحة بيضاء من الورق، وذلك لأن ماو فعل الكثير جداً لمحو (أو لتمزيق) ما كان مكتوباً هناك من قبل. وطبعاً، هناك الكثير من الكتابة التي مازالت باقية. فأنت لا تستطيع أن تمسح كل شيء من الماضي. ولكن الفكرة الجوهرية هي أن الصينيين الآن يكتبون على الورقة بأنفسهم.

هل تستطيع الحكومة أن تغير النظام السياسي وتستمر مع ذلك ممسكة بالبلاد متحدة معاً؟ هل نستطيع أن يكون لدينا صين قوية موحدة وصين مُغيّرة؟

أنا آمل ذلك، من أجل الشعب الصيني. هل يمكن أن يكون هناك أي شعب في العالم يستحق أن ينجح أكثر من الصين، وأن يرى في حياة أفراده الرفاهية والحرية التي نأخذها نحن في العالم الغربي أمراً مسلماً به ويشعر بهذه الرفاهية والحرية؟

لا أعتقد ذلك. لقد عانى الشعب الصيني طويلاً جداً، وأطول جداً مما يجب، والآن، على الرغم من كل نقائص بلادهم يقف الكثيرون جداً من الشعب على حافة التذوق لأول مرة لنوع ما من التقدم.

والحق أن لدي بعض نواحي القلق الكبيرة بشأن الصين وبشأن مستقبلها. وأنا مستعد أن أذهب إلى حد بعيد جداً لأقول إنني خائف إلى حد معين. فلدى الصين مشكلات أكثر مما يدرك الناس في الغرب، والإمكانات الخاصة بالتقدم ملونة تلويناً خفيفاً دائماً بالثمن الباهظ الذي يدفعه الخاسرون في مجمل عملية الإصلاح الاقتصادي. ومهما يحدث في الصين، فلدي شعور بأن تطور البلاد سوف يستمر في كونه ركوباً يتحرك في طريق كثير الحفر والمطبات.

وإذا لم يبدأ الحزب الشيوعي بعمل الإصلاحات السياسية، فأنا أخشى أننا حين النظر إلى العام 2020، فإن ذلك الركوب في الطريق يمكن أن يصير كثير الحفر والمطبات جداً، في الوقت الذي تصير فيه الضغوط والتناقضات في المجتمع الصيني كبيرة جداً.

ويكمن دائماً في أعماق ذهني الخوف من أن ثِقل ألفي عام من التاريخ الإمبراطوري مكدس ضد إمكانية الإصلاح الديمقراطي. إنني خائف من أن أساليب الإمساك بالدولة معاً هي أساليب غير متوافقة مع السماح للدولة بالتغير، وأن الصين الموحدة، إمبراطورية موحدة، سوف تستمر في كونها أهم للقادة من إمكانية صين متغيرة. وأنا أخشى أن الدولة الصينية، التي كانت دائماً أهم من الفرد، قد تنتهي في النتيجة إلى خيانة الشعب الصيني خيانة شاملة مرة أخرى.

ولكنني في النهاية لا أستطيع أن أكون متشائماً على نحو كامل، وبعد أخذ كل شيء بالحسبان، لا أستطيع أن أنهي هذا الكتاب بنغمة متشائمة. ربما لأنني رأيت بأم عيني طوال عشرين عاماً (وعلى طول الطريق 312) إلى أي مدى وصلت الصين. والمؤلف الصيني الكبير لو شيون سأل كل هذه الأسئلة من قبل في الأيام السوداء بعد انهيار ثورة 1912. وفي العام 1921 كتب قصة قصيرة سماها «بيتي القديم». وفيها

يصف لو كيف يعود إلى بلدته في الوطن بعد عشرين عاماً بعيداً عنها ويقابل رفيقه القديم في اللعب، الذي بقي لصيقاً بالقرية في الوقت الذي كان الراوي قد ابتعد عنها وصار متعلماً وحضرياً. ويشعر لو شيون بوجود جدار غير مرئي بينهما، ويسود القصة إحساس من التشاؤم، على الرغم من أن ابن أخيه وابن صديقه انسجما انسجاماً جيداً وهو يأمل أنهما يستطيعان أن يمتلكا «حياة جديدة، حياة لم يسبق لنا قط أن خبرناها».

ويقلق لو شيون من أن أمله قد يكون في غير محله، لأنه واعٍ إلى مدى كبير بالسحب الذي يقوم به إلى الوراء ماضي الصين، وبالسحب الذي يقوم به تراثها ويقوم به تاريخها الذي لا مفر منه. ولكنه يتوجه عائداً إلى المدينة من وطنه القديم ويفكر، وهو يذهب، فيما كنتُ أنا أفكر فيه وأنا أسافر على طول الطريق 312، وهو نعم، هناك فرق الآن، وهناك سبب للأمل وسط كل المشكلات. فالصينيون الآن أكثر جداً مما كانوا عليه في العشرينيات من 1920، يبدؤون بطريقة صغيرة جداً في أن يكونوا مسؤولين عن مصائرهم الخاصة. فهم يكتبون كلماتهم الخاصة بهم على رقُمهم، وسوف يتقرر مستقبلهم ولكن دور القضاء والقدر، أو الإمبراطور أو قوى الطبيعة سيكون أقل فأقل. الصينيون، كما يكتب لو شيون في خاتمة قصته، يصنعون مستقبلهم الخاص، بصورة منقوصة، بصورة مؤلمة، ولكنها على طول الطريق على نحو يبعث على الأمل.

> لا يمكن القول إن الأمل موجود، لا، ولا يمكن القول إنه غير موجود. إنه تماماً مثل الطرق في مناكب الأرض. وذلك لأن الأرض، في الواقع، لا طرق فيها بداية... ولكن حين يسلك كثير من الناس سبيلاً واحداً، فإنه يصير طريقاً مطروقاً.

شكـــر

بدأ هذا الكتاب الحياة في شكل سلسلة إذاعية من سبعة أجزاء في الراديو الوطني العام التي أذيعت في شهر آب / أغسطس 2004. (وتستطيع أن تسمع السلسلة في موقع:

WWW.npr.org/programs/morning/features/2004/aug/china_road

وبعد عام من رحلتي من أجل السلسلة الإذاعية التي دامت أسبوعين، سافرت على طول الطريق 312 مرة أخرى في صيف العام 2005، وفي هذه المرة سافرت طوال شهرين. ولذلك فإن (طريق الصين) هو مجمل الرحلتين على طول الطريق، زائداً رحلة عودة قصيرة إلى شنغهاي ونانجينغ. وعلى الرغم من أن ذلك أوقع الأذى في حساسياتي الصحفية، فلم يكن هناك أي سبيل آخر لعمله.

ومثل كل المؤلفين، فعلي الكثير من ديون الاعتراف بالجميل. وأول هذا الدين هو لرب عملي، الراديو الوطني العام، وعلى وجه الخصوص لكبير المحررين الأجانب، لورين جينكينز، الذي كان دعمه لسلسلة الإذاعة وللكتاب نموذجاً للتشجيع الذي منحني إياه دائماً. وأود أيضاً أن أشكر باربارا ريهم، وتيد كلارك، وكيفين بيزليي، وبوب دنكان، وهيئة المكتبة المرجعية للراديو الوطني العام، وهوغو بوثبي في مكتب الراديو الوطني العام في لندن. والشكر الكبير يذهب إلى محررتي في راندوم هاوس، سوزانا بورتر، التي أعطتني توجيهاً ممتازاً عن الكتاب، بل هي ضحكت من نكتي من حين إلى آخر. والشكر أيضاً إلى وكيلتي في واشنطون، غيل روس، التي خاطرت ووكلت أمرها إلى الحظ مع مؤلف لأول مرة، ولمديرها المبدع، هووارد يون، الذي أعطاني مُدْخلاً حاسماً في وقت حرج.

وكثيرون من الأكاديميين ساعدوني على طول الطريق، ومن جملتهم ريتشارد بوم في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجيلوس وأندرو ناثان في كولومبيا. وروبي بارنيت، من كولومبيا أيضاً، الذي قرأ كل الفصل الخاص عن التيبت وأوقفني مباشرة على عدد

من النقاط المهمة. وقرأ جيمس ميلوورد في جورجتاون كل النصف الثاني من المسودة، وكان عوناً كبيراً من خلال ملاحظاته عن الويغور وشينكيانغ. وأتقدم بشكري بشكل خاص إلى جون فلور من جامعة نورث كارولينا في تشارلوت، الذي قرأ المسودة كلها، وأعطاني بكرم بالغ من وقته ومن معرفته في تعليقاته. وغني عن القول إن أي أغلاط أو هفوات تبقى بعد ذلك فهي كلها مني.

وفي الصين، استفدت من المحادثات مع العديد من الأصدقاء في مؤسسات الصحافة الأجنبية. وأود أن أشكر على نحو خاص جيمس كينج، وروبرت وينغفيلد ـ هيز، وجيمس مايلز، وجيم ياردلي، وتشارلز هتزلر، وهولي وليامز، وأنتوني كوهن، ولويزا ليم، ومايك ليف، وهنري تشو، وجون بومفريت، وآدم بروكز، ودنكان هيويت، وفرانك لانغفيت. إن قلة من الصور هي مني، ولكن معظمها ـ كل الصور الجميلة، في الحقيقة ـ كان قد التقطها باتريك فريزر، الذي سلك بعدي الطريق. له مني شكر كبير. (ويمكن مشاهدة عمل باتريك الساحر على الموقع:

www.patrickfraserphotography.com

وهناك أيضاً المزيد من صور باتريك على موقعي على الشبكة:

(www.robgifford.com)

والشكر أيضاً لبوب كاب، وبينو فينغ، وغريغ باركر، وكيرت سيلليس، وتوني لامبرت، وميلا رونتال وكيترين ماك كيرنان.

هناك كثيرون من الصينيين الذين يجب أن أشكرهم، وبشكل خاص أولئك الذين فتحوا لي بيوتهم وقلوبهم على طول الطريق 312. بعضهم يرغب في أن يبقى مجهولاً، وهناك عدة أسماء في الكتاب غيرتها لأحمي هوياتهم. وأنا أعيش في أمل من أجل مجيء يوم لا يبقى ذلك بعده ضرورياً. ومساعِدَتي ليانغ يان، سافرت معي طول الطريق 312 من أجل رحلة الإذاعة، وأضافت كمية ضخمة لفهمي لكل شيء، مثلما تفعل دائماً. وقد قمت بالرحلة الثانية وحدي. وأعطتني ياسيمن غيو مساعدة كبيرة في البحث في شنغهاي.

إنني شاكر إلى الأبد لجميل والديّ، غراهام وجيرالدين، اللذين وضعاني أولاً على الطريق الصحيح. لقد قدما بعض الاقتراحات الممتازة مثلما فعل والدا زوجتي، روز ماري ولويد. وابناي آمي ودانييل، منحاني تشجيعاً لا نهاية له في أثناء تخطيطي وكتابتي للكتاب، على الرغم من أنه أبعدني عنهما طوال فترة طويلة من الزمن. وأنا فخور جداً بهما وأعترف أنني أحب أن أكون قد أنجبت أطفالاً كانوا قد صنعوا في الصين.

وأكثر من الجميع يذهب شكري إلى زوجتي، نانسي، التي عاشت كل لحظة من هذا الكتاب، وكل شيء حدث قبله. إن حبها، وإيمانها، وحكمتها، وصبرها، بله مهاراتها بعمل محررة، مسكوبة كلها في كل صفحة، وكل كلمة، مما كتبته، تماماً مثلما هي مسكوبة في كل ركن من حياتي. لقد جعلت أشياء عديدة للغاية ممكنة ولا تغيب عن الذاكرة معاً، وهذا الكتاب مهدى إليها مع الكثير، الكثير من الحب.

آر. كي. جي

لندن

آذار / مارس 2007